

التاريخ في سبر أبطاله

أحمد عرابي

للأستاذ محمود الحنفيف

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصري الفلاح ،
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

—*—



من سيئاته ؛ وكذلك قل أن نجد في رجالنا رجلاً كرهه بنو قومه
واستنكروا أعماله بقدر ما كره هؤلاء عرابياً واستنكروا ما فعل
وما أسند إليه من الأعمال زوراً وإفكاً . وفي ذلك دليل قوي
على أن التاريخ قد يظلم عامداً كما قد يخطئ غير عامد ؛ وفيه كذلك
دليل على أن الأمور كثيراً ما تجري فيه كما يرسم الحظ لا كما يضع
العدل من قسطاس ؛ فيكون نصيب بعض الرجال من التعظيم
بقدر ما يتوافق لهم من حظ لا ندري كيف اتفق لهم دون غيرهم ،
بينما يجني على كثير من ذوى النفوس الصحيحة والمظلمة الصادقة
ما يلحق بهم من سوء الطالع وما يحيط بهم من نحس الأيام
وما كان عرابي فيما أعتقد أثقل الرجال وزراً وإن لم يكن أقلهم
أخطاء . ولعل أستطيع أن أجلو ذلك في سيرته بقدر ما أصل إليه
من وجوه الصواب في تلك السيرة التي بالغ كثير من ذوى
الأغراض في تشويهها والحط من قدر صاحبها

ومهما يكن من الأمر فثا أحسب من الدائمين على عرابي
من يستطيع أن يمارى في أنه كان زعيم حركة وداعية فكرة ،
وأنه — أخطأ أو أصاب — كان مخلصاً فيما يفعل وفيما يقول ، وأنه
قبل ذلك كله وفوق ذلك كله كان أول مصري فلاح في مصر الحديثة
خرج من بين عامة الفلاحين في قرية من قرى مصر فاضطلع بقضية ،
ونادى على رأس المناادين بمطالب مصر ، وصار اسمه في موقف هام
من مواقف نهوضها علماً على الجهاد ورمزاً للمقاومة حتى شاعت
الظروف فامتشق الحسام وسار على رأس جيش من بنينا يذود
عن أراضيها ويقف غير هازل ولا طامع في وجه النادرين الباطنين
من أعدائها ...

بهذه الروح أكتب عن عرابي ، وعلى هذا الأساس أبين
سيرته ، فالإخلاص في الرجال هو عندي مقياس بطولتهم الأول ،
بل هو فيما أرى أصح المقاييس وأهمها ؛ أما الصواب والخطأ
وما إليهما ، فأمور توجد في الأبطال وغير الأبطال ، ولا فرق فيها
في كثير ولا قليل بين هؤلاء وهؤلاء .

ولد أحمد عرابي في عام ١٨٤٠ م في قرية تدعى هرية رزنة
بمديرية الشرقية ، ونشأ الصبي القروي كما ينشأ الآلاف مثله في قرى
مصر على نعط من العيش لا نحسبه يختلف كثيراً باختلاف
المصور في هذه القرى التي نبتت على ماء النيل منذ الأزل ...

نشأ في هذه القرية الصغيرة ذلك الصبي الذي قدر له أن يجري
اسمه يوماً ما على كل لسان في مصر ودرج بين لدائه عريضة

يذكر المصريون اسم عرابي فلا يبتعث هذا الاسم وأسفاه
في أذهانهم إلا صور العنف والنزق والحق ، وترام — وإن
لم يقصدوا — يقرون اسم عرابي بمعاني المزيمة والاحتلال والمذلة
كأن هذه المعاني من مرادفاته

وما أذكر مجلساً تطرق الحديث فيه إلى عرابي إلا وسرت
في الوجوه كآبة ، وتسابت الألسن للزم به وتمديد مساوئه
وإبراز مثالبه ...

والحق أنه قل أن نجد في رجالنا رجلاً ضاعت حسناته في سيئاته
كما ضاعت حسنات عرابي السكين فيما ارتكب وفيما اقترى عليه

للأمراض المختلفة ، يحيط به في قريته الجهل والفقر أينما توجه ، ولا يجد حوله من مظاهر الحياة وال عمران مثل ما يجده صبي مثله بنشأ في مدينة كبيرة أو يتلقى العلم المنظم في مدرسة منظمة على أنه يذكر عن أبيه في مذكراته (١) أنه كان « شيخاً جليلاً رئيساً على عشيرته عالماً ورعاً تقياً تقياً موصوفاً بالعبقة والأمانة » ؛ ومهما يكن من أمر أبيه فليس يعني في هذا المقام سوى أنه أرسل ابنه إلى مكتب القرية وهو كما يقول ابنه من منشأته فيها ، وفي هذا المكتب فتحت عيننا الصبي على نور العلم فحفظ شيئاً من القرآن وتعلم القراءة والكتابة ؛ وتمهده صراف القرية زمناً فعلمه سبأى الحساب

ومات أبوه وهو في الثامنة من عمره ، ولكن يتمه لم يحل بينه وبين أن ينال قسطاً من العلم في الأزهر فلقد أرسله أخوه الأكبر إلى هناك عسى أن يكون عالماً من علمائه ، ولكن الصبي لم يلبث بالأزهر كثيراً فعاد إلى قريته ، وكان من الممكن أن يعيش في تلك القرية ثم يموت فيها كما يعيش ويموت سواء من الفلاحين من أهلها . . .

ولكن الأقدار تجرجه من هذه القرية ليندو فيما بعد رجلاً من رجال مصر ، وليثبت التاريخ في سجله ، بعد أن يصل اسمه إلى مسامع جميع الساسة في ذلك العصر ؛ وتنطوي السنون وتبقى ثورته صفحة من أهم الصفحات في تاريخ هذا البلد

أراد سعيدياً ينهض بالجيش ، لأنه كان رجل حرب وأطامع ، ولكن لأن الجيش كان ملكاته ، فأمر بتجنيد أبناء المشايخ والأعيان ، وكان من بين من جندوا ذلك الفتى الأزهرى القروى الذى لم يكن له من عمل في قريته ، وكان يومئذ في الرابعة عشرة وبالتحاق عرابي بالجيش تبدأ مرحلة جديدة في حياته ، ثم تنتهى من ناحية أخرى مرحلة تليمه . ومن ذلك نرى أن كل ما ناله عرابي من المعرفة لم يعد ما تلقاه في المكتب ثم في الأزهر قبل سن اليقاعة ، اللهم إلا ما كان من مطالعته الخاصة فيما بعد وهي أمر لا يمكن تحديده . . .

ولطالما رى عرابي بالجهل ثم عد هذا الجهل من أهم نواحي ضعفه ، بل لقد كانت تلك الناحية في مقدمة ما يهزأ به منه خصومه ، وبخاصة أولئك المؤرخون الأجانب الذين ينتابهم أبدأ لذكر عرابي ما يشبه الحمى فيطلقون ألسنتهم فيه بلا حساب

(١) كشف التار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية

ولست أحاول هنا أن أنسب العلم إلى عرابي فما أبده عن أن يوصف بالعلم ، ولو كما كان يفهم أهل عصره من مدلوله ؛ ولكنى من ناحية أخرى لا أراه من الجهل كما يصفون أو كما يسخرون ، ذلك أني أقيسه إلى جمهرة المتعلمين في عصره من أهل مصر ، وما كان لي أن أعدو ذلك فأقيسه إلى رجال جيله في أوروبا إلا أن أعتبر مصر يومئذ في مصاف تلك الدول عالماً وثقافة وحضارة . ولن توصف الشمعة لعمري مهما كانت ضئيلة النور بأنها مظلمة ، ولا سياً إذا قيست إلى غيرها من الشموع وما على شاكلتها من المصابيح ؛ أما أن تقاس إلى المشاعل القوية أو أن تنقل من ظلمة الليل إلى وضوح النهار ثم يتحدث بعد ذلك عن مقدار نورها ، فهذا ما لا يجوز إلا في حساب المفرضين والبطلين

ومتى كان العلم الفزير من مستلزمات البطولة ؟ ألا كم شهد التاريخ من أناس لم يكن لهم من العلم إلا مثل حظ الرجل العادى منه بحيث لو أنهم قيسوا من هذه الناحية إلى معاصريهم من العلماء والفلاسفة لكانوا في حكم المدم ، ومع ذلك فلم ينل تقصم هذا من بطولتهم أو يقعد بهم عن مواصلة السير إلى مثلهم التي رسموها ؛ وذلك أن قلوبهم كانت عامرة بما هو أعلى وأعظم من نظريات العلماء وأحلام الفلاسفة . . . كانت قلوبهم عامرة بالإخلاص والحماسة والفزم وهي خلال لن تقوم عظمة حقيقية بدونها ولن تنفى عنها سواها من الخلال مهما كان من قيمتها في مجال آخر ؛ ولرجل واحد وثيق العزيمة صادق الإخلاص متوقد الحماسة خير في قيادة الناس وتحريرهم من عشرات الفلاسفة التاريخيين في أوقاتهم وكتبهم وما كان عرابي فيما استخلص من سيرته خلواً من هذه الخلال ، بل لقد كان ما توافى له منها لا ينزل به في البطولة عن مرتبة شريف والمويلحى والقناني ومحمد عبده وجمال الدين والبارودى وغيرهم من مثققي عصره ، إن لم يكن يرتفع به عليهم على مسألة علمه بالنسبة إليهم . ولست أغلو في ذلك أو أحميز ، وإلا فكيف انتهت إليه في وقت ما زعامة الحركتين الوطنية والمسكرية معاً ؟ ولقد كان في الأولى كما ذكرت من الرجال من هم أعلى كعباً منه في المعرفة ، وفي الثانية من هم أرسخ قدماً في الجنديّة ؟ وهل يعزى ذلك إلى الحظ وقد كان عرابي من أكثر الناس شغفاً على رؤسائه في الجيش ، أم يعزى إلى الجاه والثروة وقد كان فلاحاً ابن فلاح من بيت عادى لا ثروة له ولا جاه ؟

ألا إنه لا مناص لنا إذا أردنا الإنصاف من أن نمزو ذلك

بالنفس والشعور بالقومية تبجحاً ، فإذا نسي القاعد والتخاذل والاستخذاء أمام الأجنبي ؟ ألا ليت كل تبجح يكون كتبجح عرابي هذا فما أعظمه وما أجله ، وما أجدره بالتقدير والإعجاب ! ولت شعري كيف يستطيع رجل في مثل موقعه أن يقنع الكابرين أن زعته كانت قومية يقصد بها بني قومه جميعاً ؟ وأي عيب في أن يبدأ بنفسه فيرقق بها ؟ أليس مصرياً ؟ وهل كان يمتز بغير مصريته إذا اعتر بنفسه ؟ على أنه لو أراد بالرق نفسه فحسب دون أي اعتبار قومي ، فما وجه العيب في ذلك ؟ أليكون من العيب أن يتطلع الرجل إلى العالي ، ولا يكون من العيب أن يرضى بتقدم غيره عليه حتى ولو كان ذلك الغير أجنبياً ؟

إن الرجل المخلص لا يقف ليقول للناس إنه مخلص وفي ذلك شك منه في نفسه ، ولا يكون هناك دليل على إخلاصه إلا ما يعمل في سبيل تحقيق مبدئه ، أما الكلام فصيله ميسور ؛ وفي استطاعة كل مبطل أن يملأ أسماع الناس بدعوى إخلاصه في غير مشقة .

« يتبع »
الطيب

الغدد والهرمونات

إن من الواجب المقدس على الرجل بعد الثلاثين أن يهتم بشده وأن يحافظ عليها لكي تقوم بوظيفتها . ووظيفة الغدد هي إفراز هرمونات في الجسم تملأه قوة وحيوية ونشاطاً . فإذا كانت غددنا لا تفرز الهرمونات بانتظام فعلينا أن نعالجها بمقويات طبية مضمونة لتعود إلى نشاطها وعملها فنشمر حالاً بفرق هائل في قوانا الجنسية والحيوية

لقد توصلت معامل إنز وهنريش الشهيرة في لندن إلى تحضير أقراص فيدا - جلاند التي تعيد إلى الغدد قوتها ونشاطها ونظام عملها . وهي ضامن أكيد لإنعاش الغدد لتفرز الهرمونات وتعيد إلى الجسم قواه الجسدية والتناسلية والحيوية

لا تترك غددك ضعيفة جائمة ناشفة . أعطها مقويات يعيد لها الحياة والقوة . خذ أقراص فيدا - جلاند . هي خلاصة غدد طازره ومفعولها مضمون

إلى أنه كان أكثر ممن حوله إيماناً وأقوى منهم جناناً وأشد منهم توثباً وتطلماً ، وإن كان من أقلهم معرفة واطلاعاً ؟ وهنا لا أتردد أن أثبت رأياً آخر وهو أنه لا يجوز عندي أن يُمدَّ عليه ما يعزى إليه من جهل أو أن يؤخذ به ، وإنما ينبغي أن يعد له وأن يعتبر داعياً من دواعي نغره !

انتظم عرابي في سلك الجندي (نقرأ) عادياً فما لبث أن ترق بمد سنتين إلى رتبة (ملازم ثان) وكان ذلك حوالي عام ١٨٦٠ ثم إلى رتبة ملازم أول فيوزباشي في نفس العام ، ولم يمر عامان بمد ذلك حتى وصل إلى رتبة قائمقام (بك) وكان عرابي أول مصري وصل إلى هذه الرتبة كما يقول في مذكراته

وصل هذا الجندي من رتبة الجاويش إلى رتبة قائمقام في نحو أربع سنوات وما كان ذلك عن حظوة له عند أحد ، وإنما كان سلاحه ذلك القدر من العلم الذي أشرنا إليه ، فبه تمكن عرابي أن يدرس القوانين العسكرية ويمتاز الامتحانات متفوقاً ، وبدلنا ذلك على ندره المتعلمين في ذلك الجيش ، ولا شك أن هذا الترقى السريع قد بث في نفس الفتى القروي كثيراً من الطموح والإقدام ...

على أنه كان شجاعاً بطبعه في عصر كثيراً ما كانت تمد الشجاعة فيه ضرباً من المصيان والتمرد كما سيأتي بيانه ؛ ولسوف نرى من مواقفه في هذا العصر ما يزيد معنى بسالته ويظهرها مضاعفة ...

وأول ما عرف عنه في الجندي كراهته للعنصر الجركسي ، فكان لا يفتأ يقارن بين نصيب هذا العنصر ونصيب المصريين من المناصب ، فلأزيد المقارنة الإغضباً وكراهية لهؤلاء الأجانب . أليست هذه النزعة من جانبه هي زعة الوطنيين في الجيش حينما تبدأ الحركة العسكرية ؟ ثم ألسنا نجد فيها جانباً من الوطنية ومعنى من معانيها ؟

ولكن بعض المؤرخين لا يفهم هذا من جانب عرابي إلا على أنه ضرب من الأنانية والجشع ، بل ليسرف بمفهم فيرميه بالتبجح قائلين : ما لهذا الفلاح وعليا المراتب في غير جدارة ؟ ولأمهم في ذلك ليمتدحونه من حيث لا يشعرون ! ولئن كان الطموح